اسم الدرس : تفسير سورة يوسف (4) | الآيات (25 : 30)

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

نستكمل بإذن الله عز وجل وقفات مع سورة يوسف، أسأل الله عز وجل أن يتم لنا على خير، وأن يتقبل منا، ويجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

كنا قد توقفنا عند قول الله سبحانه وتعالى: {واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم}[يوسف:25]، ذكرت سابقًا أن من الملاحظ في قصة يوسف أنها عبارة عن مشاهد متتالية، وأحيانًا يكون بين المشهد والمشهد الآخر فواصل زمنية؛ بحيث تكمل أنت بقية القصة، وتنتقل من مكان إلى مكان آخر، وهذا مما يثير الذهن، فحتى في كتابة الرواية ليس من الضروري أن يروي الكاتب كل التفاصيل؛ فلا يذكر أن البطل سافر من هذه البلد إلى تلك، بل قد يكون المشهد في بلد وينتقل في المشهد التالي إلى بلد آخر.

فبعد أن تكلمنا عن مشهد يوسف في البئر، ثم رأينا يوسف وهو يباع، وبعد ذلك رأينا يوسف عليه السلام في بداية دخوله إلى المكان، وقلنا أننا لن نذكر كلمة "القصر"؛ لأن الآيات لما بدأت لم تذكر مَن الذي اشتراه من مصر، لكن كانت هناك إشارة بسيطة إلى أن الذي اشتراه رجل مُمكَّن، وهذا فهمناه من قوله تعالى: {وكذلك مكنّا}[يوسف:21]، إذًا؛ من الواضح أن الذي اشتراه ذو مكانة.

وبعد ذلك مشهد المراودة؛ حيث راودته امرأة، ولم تذكر لنا القصة حتى الآن من هي هذه المرأة التي راودته –هي امرأة وراودته–؛ وهي التي هو في بيتها؛ أي: زوجة الرجل الذي قال لها:{أكرمي مثواه}[يوسف:21]، وذكرنا مشهد المراودة والخلاف الذي فيه، وكيف أن الله سبحانه وتعالى منّ على يوسف وعصمه من ذلك؛ وقال ربنا سبحانه وتعالى –وهي آية واضحة وصريحة– {لنصرف عنه السوء والفحشاء}[يوسف:24].

ثم بعد ذلك {واستبقا الباب}[يوسف:25]، وذكرنا أن الهروب من الفتنة يحتاج إلى أن يأخذ الإنسان قرارًا قويًّا؛ فيقرر أنه لا بد أن يخرج الآن من مكان الفتنة، والتأخر في أخذ القرار يضعف الإنسان، وليس ذلك في ترك مكان الفتنة فحسب، بل حتى في الإقبال على الطاعة، فالتردد في الإقبال على الطاعة يجعل الإنسان يسقط.

– انتبه إلى أن أي فترة زمنية تأخذها لتفكر هل تأخذ قرار الطاعة أم لا، أو تترك المعصية أم لا، يشاركك فيها الشيطان غالبًا؛ فهذا القرار أنت لا تفكر فيه وحدك، فلا تتصور أنك تكون وحدك حين تفكر هل أذهب لأُصلي الفجر في جماعة أم لا؟ هل أحفظ القرآن أم لا؟ هل أطلب علمًا أم لا؟،هل أترك هذه المعصية أم لا؟

فحينما تجلس لتُفكر وتطيل التفكير فإن الشيطان يأتيك، ويظل يثبطك، مثلما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه)[1] أي: كلما تحاول أن تفعل شيئًا، فكما في الحديث: (فأراد أن يُسلم...، وأراد أن يُهاجر...، وأراد أن يُجاهد...)، فكلما حاولت فعل الطاعة يأتيك الشيطان ويقول: ماذا تنوي أن تفعل؟ هل أنت مجنون؟!، فكر مرة ومرتين وثلاث، و يظل الشيطان يثبطك.

قال صلى الله عليه وسلم: (التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة)[2]؛ والتؤدة هي أن تفكر مرة واثنتين وثلاث، وهذا حسن في كل شيء إلا في أمر الآخرة؛ ففي أمر الآخرة لا بد أن تستبق، وتسارع؛ لأن العزائم تفسخ سريعًا؛ فمن الممكن أن تكون عندك اليوم عزيمة على أن تحفظ بعض القرآن وتتحمس لذلك، ثم تفسخ هذه العزيمة في الغد، ولا تعود موجودةً؛ فلا بد أن تنطلق مباشرةً.

وقد كانت خُطبة اليوم تتحدث عن الآية الكريمة: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه}[الأنفال:24]؛ حيث أن كثيرًا من السلف كان يقول أن معناها هو أن العزائم قد تفسخ.

1- [عن سبرة بن الفاكه المخزومي الأسدي:] إنَّ الشيطانَ قَعَدَ لِابنِ آدمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الإسلامِ فقال: تُسْلِمُ وتَذَرُ دِينَكَ ودِينَ آبائِكَ وآباءِ آبائِكَ ؟ ! فَعَصاهُ فَأسلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ: فقال: تهاجِرُ وتَدَعُ أَرْضَكَ وسَماءَكَ وإنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ ! فَعَصاهُ فَهاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لهُ بِطَرِيقِ الجِهادِ فقال: تُجاهِدُ فهوَ جَهْدُ النَّفْسِ والمالِ، فَتُقاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المالُ؟ ! فَعَصاهُ فَجاهَدَ، فَمَنْ فعلَ ذلكَ كان حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، ومَنْ قُتِلَ كان حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، وإنْ غَرِقَ كان حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، وإنْ وقَصَتْهُ دابَّتُهُ كان حَقًّا على اللهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَةَ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ١٦٥٢ • صحيح

2 [عن سعد بن أبي وقاص:] التُّؤَدَةُ في كل شيءٍ إلا في عملِ الآخرةِ

الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ١٧٩٤ • صحيح على شرط مسلم

{استجيبوا لله وللرسول}[الأنفال:24] تأتي بمعنى: بادروا بالاستجابة؛ لأنك إن لم تبادر بالاستجابة، فهذه العزيمة قد تفسخ، ولن تجد العزيمة التي تدفعك إلى العمل.

تجد هناك من يتحسر على فترة من الفترات كان عنده فيها هم وهمة لطلب العلم أو حفظ القرآن؛ فيقول أود أن أحفظ سورة البقرة في أسبوع –كانت تأتيه همة معينة بعد رمضان مثلًا–، فلا يستغلها، وتمر الأيام ويجاهد نفسه بعد ذلك ليحفظ نصف صفحة! لأنه قد فرّط في تلك النعمة.

– قال ربنا سبحانه وتعالى: {واستبقا الباب}[يوسف:25]، تخيل قوة هروب سيدنا يوسف، وقوة تعلق الفتنة به! أحيانًا عندما تحاول الهروب من فتنة معينة يزداد تعلقها بك؛ مثلًا شاب كان قبل الالتزام يتعرف على الفتيات، أو يخرج مع أصدقاء غير ملتزمين، ثم قرر أن يلتزم، وبمجرد أن يقرر الابتعاد، تجد الفتيات فجأة يقبلن عليه إقبالًا عجيبًا، مع أنه قبل أن يقرر الالتزام لم تكن الفتيات يقبلن عليه ولا يُعِرنَه اهتمامًا، أو تجد أصحابه يتعلقون به تعلقًا غريبًا، وبالأمس لم يكن ذا قيمة في تجمعاتهم، فلم يكن خفيف الظل، ولا يُعِيره أحد أي انتباه، ثم عندما قرر أن يتوب تجدهم يُلحّون عليه ألا يفعل، ويتمسكون به تمسكًا شديدًا؛ فيظن بأنه مهم عندهم؛ فيعود إليهم مرة أخرى.

فهنا نرى أن تعلق الفتنة بيوسف أدى إلى قطع القميص؛ فلم يكن الأمر أنه بمجرد أن ابتعد هي أعرضت عنه، فقال ربنا سبحانه وتعالى: {واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر}[يوسف:25].

ولما وصلا إلى الباب {وألفيا سيدها}[يوسف:25]، وانظر هنا أيضًا إلى تعبير القرآن عن الزوج بـ"سيدها"، فلم يقل: "زوجها" {وألفيا سيدها لدى الباب}[يوسف:25].

وتساءل بعض المفسرين عن الفرق بين "عند الباب"، و "لدى الباب"، فهل المقصود بـ"لدى الباب"؛ أي: أنه وجد الباب مغلقًا، فظل منتظرًا أمام الباب، وهو في حالة من الريبة؟

وكما ذكرنا فإن هناك كلمات في القرآن تجعلك كأنك تشاهد المشهد؛ وهذا من إعجاز القصص القرآني –وهذا ذكرته في أول درس في سورة يوسف–، بالمقارنة مع كلام البشر فهو محدود؛ لكن المشاهد التي تراها تعطي معانٍ كثيرة جدًّا، مثلًا أحدهم يشاهد فيلمًا والآخر يقرأ صفحة من نصٍّ مكتوب، فالمشهد

الواحد يعطي معانٍ أكثر؛ لأنه مليءٌ بالأحداث والمشاهد والصور أكثر من مجرد صفحة، وحتى في الرواية تجد هناك من عنده ملكة أدبية بحيث يصيغ أحداثًا كثيرة في كلامٍ قليل؛ وهذا صعبٌ جدًّا.

- فمن إعجاز القرآن أن الله سبحانه وتعالى تكلم بهذا الكلام، وعندما يخبرنا بالقصص القرآني، فهذا الكلام المحدود يحمل عددًا غير محدود من المعاني، فكلما عاد الإنسان إلى القصة وتأمل فيها وجد فيها معانٍ عظيمة؛ وهذا سر اهتمام المفسرين باللفظة وبالحرف القرآني.

{وألفيا سيدها لدى الباب}[يوسف:25] تخيل المشهد: سيدنا يوسف يركض، ومشهد الركض واضح عليه، وقميصه ممزَّق، فالقميص فيه تمزيق، وهو صمم أن يواصل الركض، وهي تلاحقه بكامل زينتها، ثم فَتح الباب، فَوجد زوجها، فَابتدرته هي بالكلام مع أن المشهد مشهدًا مريبًا؛ سيدنا يوسف يلهث وهو في قمة الغضب، وهي تركض وَرِاءه؛ لأن الله عز وجل قال: {واستبقا}، فهي أيضًا كانت تركض وَرِاءه، وكما ذكرتُ في المرة الماضية أنها كانت عندها القدرة على أن تتمالك أعصابها، وتكون مُعدّة لكلام معين، وتقول جملة قال عنها المفسرون أن كل لفظة فيها تقصد بها دلالة معينة؛ وهذا جعل بعض المفسرين يقول أنها كانت تُعدّ هذا الكلام، وتجهّز الذي ستقوله إذا ما افتضح أمرها.

وهذا يدل على فكرة أن المرأة أيضًا رغم أنها سقطت في الفتنة، كانت امرأة حكيمة، ومن الواضح أنه كانت لديها خبرة في التعامل؛ انظر ماذا قالت! قالت كلمة عجيبة جدًّا؛ فهي لم تبدأ الكلام بأن تقول: هو راودني، لا، بل قالت مباشرة: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجن أو عذاب أليم}[يوسف:25]؛ فبدأت بجملة أوصلت لزوجها أنها حكمت وأخذت قرارًا بالعقوبة، وجعلته يختار: إما أن يُسجن أو يُعذب؛ فهي لم تدافع عن نفسها أو تضع نفسها في موطن الريبة، فلو قالت: هو الذي راودني عن نفسي؛ لفُتح مجال للنقاش: مَن راود الآخر؟، لكنها أخذت القرار، وتعاملت على أن الأمر مُنتهٍ تمامًا؛ فقالت: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجن أو عذاب أليم}[يوسف:25].

هذا مُجمل الجملة، فتعالوا نُحلل الكلام:

قالت: ما جزاء من "أراد"؟، ولم تقل: "ما جزاء من فعل بأهلك سوءًا"؛ كأنه أراد، ولكن لم يُتم هذه الفعلة؛ فهي بذلك تريد شيئين:

أولًا: أن تبرئ نفسها وتقول أنه حاول وهي منعته؛ لأنها شريفة، فكأنها تقول أن الإرادة لم تتم لأنني منعته، ودليل المنع واضح عليه؛ فهو حاول أن يراودني عن نفسي، ولكن لشرفي وامتناعي قطعت قميصه حتى لا يراودني عن نفسي، فكلمة "أراد" تريد بها أنه أراد ولكنه لم يفعل.

وثانيًا: أو أنها أرادت التخفيف؛ حتى لا يُعاقب يوسف؛ لأنها تحب يوسف، فقالت: {من أراد بأهلك سوءًا}[يوسف:25]، ولو قالت: "من فعل بأهلك سوءًا"؛ فقد يعاقبه زوجها، وإن كان الاحتمال الأول هو الأظهر –وسأوضح بعد ذلك لماذا رجحتُ هذا القول–.

إذًا؛ لماذا قالت كلمة "أراد" بدلًا من "فعل"؟؛ إما أنها تحاول تخفيف العقوبة على يوسف عليه السلام –وهذا قاله بعض أهل العلم–، أو أنها تريد أن تبرئ نفسها وتبيّن مدى شرفها أمام زوجها.

{قالت ما جزاء من أراد بأهلك}[يوسف:25] ولم تقل: "بي"، فنسبت نفسها إليه لتستثير نخوته، كأنها تقول: "هل يصح أن يفعل هذا بامرأتك، وأنت عزيز مصر؟"؛ وهذا يدل على أن المقصد من كلمة "أراد": أن تبين شرفها، لا تبرئة يوسف، وإن كان بعض أهل العلم حاولوا أن يحللوا الجملة وقالوا أنها كانت تريد أن تخفف العقوبة على يوسف حتى لا يُعذّب، لكن واضح من الجملة أنها تريد تهديد يوسف، وهي تعلم أن زوجها لن يفعل شيئًا، وهذا واضح من السياق كما سنرى.

{ما جزاء من أراد بأهلك}[يوسف:25] لم تقل بي، {سوءًا} هنا "سوءًا" جاءت نكرة، لم تقل: ما جزاء من فعل بي الفاحشة؟

"سوءًا" جاءت بصيغة النكرة:

إما لتفيد أنه حاول كمقدمات فحسب، مثلما قال ربنا عز وجل: {لنصرف عنه السوء والفحشاء}[يوسف:24]؛ أي: صرفنا عنه الزنا ومقدمات الزنا؛ وهذه الآية تبرئة لِيوسف عليه السلام

أنه حتى لم يهم، ومن قال بالهم قال الهم يمكن أن يكون هم الخاطر، لكن الهمّ بالفعل لم يحدث أبدًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى صرف عنه السوء؛ والسوء مقدمات الزنا، فقالت: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا}[يوسف:25] كأنها تقول: هو حاول أن يُقبّلني -مثلًا- فحسب؛ حاول بالمقدمات فحسب، ولكنني امتنعت.

أو أتت بصيغة النكرة، والنكرة تفيد نوعًا من التعميم والغموض؛ فلم تقل: أنه فعل شيئًا بعينه؛ ليذهب بخياله كل مذهب، فيزداد غيظًا، فينتقم من يوسف، وهذا يتماشى مع كلمة "بأهلك".

{قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا}[يوسف:25]، ثم لم تترك له أخذ القرار، بل أخذت هي القرار: {إلا أن يُسجن}[يوسف:25]، وبدأت بالسجن؛ لأنه لو سجن يمكن أن تُخرجه بعد ذلك.

ثم ارتقت إلى درجة أعلى في العذاب؛ حتى تهدد يوسف إذا راودته مرة أخرى عن نفسه، فقالت: {إلا أن يُسجن}، وكأنها تختار السجن، {أو عذابٌ أليم}[يوسف:25] ولم تكتف بأي عذاب، ولم تقل: إلا أن يسجن أو يُعذب، بل هي تهدده؛ لأن الفرق بين كلمة "يُعذب" وبين كلمة "عذاب أليم" هو: أن "يُعذّب" فعل؛ فيمكن أن يُضرب مرة واحدة، لكن "عذاب أليم"؛ أي: يظل مستمرًا في العذاب، فكأنها ترتقي في العقوبة بين أن يُسجن فترة زمنية معينة، أو أن يستمر عليه العذاب.

و"أو" التخيير هذه كأنها تريد منه شيئًا آخر، وكأنها ستراوده مرة أخرى عن نفسه، فهي تهدده: إن عدتُ إلى مراودتك عن نفسك، فلتستجب لي وإلا عذبتك، وكما سنرى بعد ذلك -إن شاء الله- كيف أنها بالفعل كررت هذه المراودة، وكررت هذا التهديد صراحةً {إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم}[يوسف:25].

يوسف الصديق المبرأ الشريف العفيف عليه السلام، الكريم بن الكريم بن الكريم، في هذا المشهد العجيب: أنه وجد نفسه فجأة يُراوَد ثم استعصم وفر منها، وأخذ بكل أسباب العفة والتُقى وفر منها، ثم وجد زوجها عند الباب، وفوجئ بهذه المكيدة المدبرة والكلام المنمق المدبّر الذي يستثير نخوة الرجل، وهذا الرجل يرى يوسف عليه السلام أن له فضلًا عليه، ويوسف عليه السلام يقدر هذا الفضل.

وذكرنا أن القول الأشهر في قول يوسف عليه السلام: {إنه ربي أحسن مثواي}[يوسف:23]؛ أن "ربي" أي: سيدي الذي أنعم علي –وإن كان هناك قول بأن "ربي" أي: الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا ليس هو القول الأشهر، فهنا اضطر يوسف عليه السلام إلى الدفاع عن نفسه.

فأحيانًا لا بد أن تدافع عن نفسك، فتجد من يقول أن الأولى أن أسكت، لكن لا، ولا سيما الداعية الذي يعمل للدين، لا بد أن يكون مُبرأً طاهرًا، وحتى لو أخطأ يقول: أنا أخطأت، مثلما قال موسى عليه السلام: {فعلتها إذًا وأنا من الضالين}[الشعراء:20]، فلا بد أن تكون الساحة، وورقة الداعية بيضاء نقية أمام الناس، وإذا ما أخطأ يقول: أنا أخطأت، ويعترف بخطئه، ولو اتُّهم يدافع عن نفسه.

النبي صلى الله عليه وسلم لما رآه بعض الصحابة –رآه رجلان– وهو مع زوجته ليلًا؛ ناداهما فقال: (إنها صفية)[3]؛ وهذا منهج؛ حتى لا يُظن فيك ظن سوء، بالرغم من أنه أصلًا ليس متهمًا عليه الصلاة والسلام، بل لو هما ظنّا فيه سوءًا لكفرا، لكن النبي صلى الله عليه وسلم برأ نفسه!.

– فمن المهم ألا يضع الإنسان نفسه أبدًا موضع الريبة، ولو وضعت نفسك موضع الريبة فأنت المسؤول؛ مثلًا: تتكلم مع نساء في مكان غريب وفي وقت غريب؛ أنت هنا في موطن ريبة، ولا بد أن تبرئ نفسك، ولا سيما إن كنت تعمل في الدعوة، أو مثلًا في محادثات معينة في مجموعات على "الواتس آب" أو على "الفيس بوك" مع نساء، وحدث نوع من التخطي للحدود؛ فلا بد أن تبرئ نفسك.

فهنا يوسف عليه السلام برأ نفسه، وقد اضطر إلى ذلك، ولم يقل: أنتِ كاذبة، فكما ذكرنا سابقًا أنه عندما أراد أن ينصحها لم يهاجمها، وقال: {معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون}[يوسف:23] –وشرحنا الجُمل الثلاث–، وهنا لم يقل: أنتِ كاذبة، بل قال: "هي" بصيغة

3- [عن صفية أم المؤمنين:]كان رسولُ اللهِ ﷺ معتكفًا، فأتيتُه أزورهُ ليلًا فحدَّثتهُ وقمتُ، فانقلبْتُ فقام معي ليقْلِبني، وكان مسكنُها في دارِ أسامةَ بنِ زيدٍ، فمرَّ رجلانِ من الأنصارِ فلما رأيا النبيَّ ﷺ أسرَعا، فقال النبيُّ ﷺ:على رِسْلِكُما إنها صفيةُ بنتُ حُيِيّ. قالا: سبحان الله يا رسولَ اللهِ ! ! قال: إنَّ الشيطانَ يجري منَ الإنسانِ مجرى الدمِ، فخشيتُ أن يقذفَ في قلوبِكما شيئًا – أو قال: شرًّا - الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٤٩٩٤ • صحيح

الغائب؛ حتى كأنه لا يريد أن يواجهها؛ مُعرضٌ عنها، فاستعمل ضمير الغائب مع أنها بجواره؛ فقال: {هي راودتني عن نفسي}[يوسف:26]؛ كلمتين فحسب.

وبيّن الله سبحانه وتعالى صدقه، فقدّر الله سبحانه وتعالى من يشهد ليوسف، وهكذا الصادق يقدر الله سبحانه وتعالى له من يُبين براءته عندما يكون صادقًا وعفيفًا، ويتعفف ويبذل الجهد للتعفف، لئلا يسقط في السوء والفاحشة، وانظر إلى جهد يوسف عليه السلام في قوله سبحانه وتعالى: {فاستعصم}[يوسف:32]، وانظر إلى جُهد يوسف عليه السلام في: {واستبقا الباب}[يوسف:25]، وانظر إلى جهده لدرجة أن القميص يُقطع وهو مستمر في الركض.

أحيانًا يكون من أسباب سقوط الإنسان في الفتنة؛ ولا سيما فتنة النساء: أنك تشفق على حالها، وتقول هي امرأة ضعيفة سأجبر بخاطرها وأتعامل معها بنوع من الحسنى؛ وهذا يجعلك تسقط.

– التعامل مع النساء لا بد أن يكون بحزم، وهناك فرق بين التعامل بحزم و بين سوء الأدب؛ فلم يقل أحد أن تتعامل مع النساء بنوع من سوء الأدب؛ لكن الحزم بمعنى أنه لا تحدث تجاوزات، ومثلما ذكرتُ في المرة الماضية أن كل تجاوز مع النساء من الصعب جدًّا أن ترجع فيه، *فإياكم وكسر الحواجز، إياكم وكسر الحواجز*.

مسألة التعامل بين الرجل والمرأة قصة طويلة في الإسلام، تحتاج إلى درس منفصل لكي نشرحها ونورد فيه مجموعة من النصوص؛ لأن أحيانًا يستغل بعضهم نصًّا معينًا في نوع من التعامل المفتوح، وأحيانًا يستغل أحدهم نصًّا آخر في الإغلاق التام، وألا يكون هناك أي تعامل، والصحيح أن هناك تعاملًا، ولكن هذا التعامل يكون بقدر معين وبِضوابط جاء بها الإسلام.

والإنسان منا يعلم من نفسه متى حدث تجاوز، فالأمر كله ينضبط برقابة داخلية، فأنت تعلم من نفسك أنك الآن متعلق بهذه المرأة، وأن هذا التعلق فيه شهوة معينة؛ فحتى الكلام بصورة طبيعية مع هذه المرأة تحديدًا بالنسبة لك أصبح محرمًا، فأنت تحتاج إلى أن تبتعد خطوة، وأنت تعرف أن الأمر هنا تحديدًا

يستثير شهوتك وشهوتها، وأنه يؤدي إلى نوع من الخطورة في التعامل، فالإنسان يحتاج إلى رقابة داخلية معه؛ لا سيما في التعامل مع النساء.

كذلك الذي عنده فتنة في المال، يجب عليه ألا يعمل في مكان يمسك فيه أموالًا، فيحترم ضعفه؛ لأن من عنده فتنة في المال عندما يكون أمامه مال كثير من الممكن –والعياذ بالله– أن تمتد يده إليه ويسرق، فالأحوط أن يبتعد عن أموال الغير، ولا يستلم أموالًا خيرية، ولا يدخل في هذا التعامل؛ فلا يجمع أموالًا من الناس حتى لو كانت هناك منفعة؛ مثل جمع أموال الزكاة وإعطائها للفقراء؛ لأنه يسقط في الفتنة كل مرة، فليبتعد.

يأتي أحدهم فيسأل هل أُحرم التعامل الطبيعي مع المرأة بسبب أن عندي ضعفًا تجاه هذه المرأة؟

أقول: نعم، حتى لو كان من ورائها خير، وحتى لو كنتما في جمعية خيرية، أو في أي مكان يؤدي إلى خير، فالفتنة غالبًا تأتي من هنا، ولا سيما لأهل الدين؛ فالذي لا يخاف الله، أو غير الملتزم –كما نسميه–، لا يحتاج الشيطان أن يقنعه بكسر الحواجز؛ لأن الأمر عندهم مفتوح، فالشيطان يقفز إلى الخطوة الرابعة مباشرة، ولا يحتاج أن يمشي معه خطوة بخطوة.

لكن بالنسبة لأهل الدين فالشيطان يمر معهم بمراحل؛ فيُقنعه بأن الهدف من الكلام هو أن نخدم الدين، وأن ننفع المسلمين، وبالفعل تكون النية صالحة في البداية، ولا يحدث أي تعدٍّ، لكن مع طول الممارسة والخلطة الدائمة يقع الإنسان في تجاوزات؛ تجاوز تلو تجاوز، ولا يقف الإنسان ولا يتراجع، ولا يضع حدودًا حتى يسقط بعد ذلك في الفتنة –والعياذ بالله–.

{قال هي راودتني عن نفسي}[يوسف:26] دافع عن نفسه، {وشهد شاهد من أهلها}[يوسف:26] برأه الله سبحانه وتعالى لصدقه ولعِفته، وهنا كان يمكن أن يقول ربنا عز وجل: "وشهد رجلٌ من أهلها" إن كان رجلًا، أو "طفلٌ" إن كان طفلاً على قول حديثٍ مروي عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حسنه بعض أهل العلم، وآثارٍ مروية عن الصحابة ضعفها بعض أهل العلم[4]؛ حيث ذكرت أن الشاهد هنا طفل رضيع أنطقه الله سبحانه وتعالى، أو أن الشاهد رجل حكيم من أهلها سُئل عن الموقف، أو قاضٍ سئل عن الموقف؛ فحكم بما نسميه "الحكم بالقرينة"؛ وهو أن يدرس ملابسات الموضوع؛ فحُكي

---

[4] [عن أبي هريرة:] لم يتَكَلَّم في المَهْدِ إلّا أربَعةٌ: عيسى وشاهدُ يوسُفَ وصاحبُ جُرَيْجٍ، وابنُ ماشِطةِ فِرعونَ الألباني (ت ١٤٢٠)، ضعيف الجامع ٤٧٥٩ • ضعيف • أخرجه الحاكم (٤١٦١)

له أن العزيز أراد أن يفتح الباب، فوجد سيدنا يوسف يركض، ووجد القميص مقطوعاً، وهما يتهمان بعضهما البعض، فكيف نحكم؟ فالتقط الحاكم أو القاضي أو الرجل مسألة قطع القميص.

فهنا قال ربنا {وشهد شاهدٌ} لماذا قال: "شاهدٌ" ولم يقل: "رجل" أو "طفل"؟ قالوا: لأن الشهادة هنا كانت معتبرة؛ فاستحق أن يسمى شاهدًا؛ لأن الشهادة هنا في هذا الموطن كانت مهمة جدًّا، فأحيانًا قد تنقذ كلمتك في الشهادة إنسانًا لكنك تبخل بها، فَالقيام بالشهادة في هذا الموطن كان أمرًا عظيمًا، ولا سيما أنه كان يمكن –وهذا ما حدث بالفعل– أن يضر امرأة العزيز.

{وشهد شاهدٌ من أهلها}[يوسف:26]، فهي كانت تقول {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا}[يوسف:25]، فأتى الله لها بشاهد من أهلها يشهد بالحق {وشهد شاهد من أهلها}[يوسف:26]؛ إما أنه كان طفلًا رضيعًا؛ حيث قيل في الآثار: أن يوسف عليه السلام طلب طفلًا رضيعًا يشهد له حتى تعجبوا من ذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أنطقه، أو كما قيل بأنه رجل حكيم حكم بالقرائن–كما ذكرت–.

فقال هذا الشاهد –أيًّا كان–: {إن كان قميصه قُد من قُبل}؛ أي: من الأمام {فصدقت وهو من الكاذبين۝ وإن كان قميصه قُد من دُبر}؛ لأنه أعطاها ظهره وولى مُدبرًا {فكذبت وهو من الصادقين}[يوسف:27,26]، هنا حكم بالقرينة، فطالما أن القميص مقطوع وممزق؛ فلو راودها عن نفسها وهي تدافع عن نفسها فَمن المنطقي جدًّا أن يُقطع القميص من الأمام، أما إن كان يفر منها لأنه وصل الباب أولًا؛ إذًا؛ هو الذي كان يستبق أولًا وهي التي تركض وراءه، فلو قُد القميص من دبر فهو الصادق.

وبدأ الشاهد بالأمر المحتمل لصالحها؛ وهذا ما جعل بعض المفسرين يقولون أن هذا الشاهد كان رجلًا كبيرًا يريد أن يبرئها أصلًا؛ لم يكن يعرف المشهد، ولم يكن يعرف ما حدث؛ لكنه أراد أن يبرئها؛ فبدأ بالاحتمال الأول الذي كان لصالحها.

أو أنه كان حكيمًا؛ فبدأ بهذا الاحتمال؛ حتى لا يُظهر الريبة تجاهه بأنه يريد أن يبرئ يوسف؛ فبدأ بالاحتمال الذي لصالحها أولًا.

وفي كلا الحالتين أتى بأوصافها هي بالفعل، وأوصاف يوسف بالاسم؛ ففي مرة قال: ﴿فصدقت وهو من الكاذبين﴾[يوسف:26]، ثم ﴿فكذبت وهو من الصادقين﴾[يوسف:27]؛ وكأن الخطأ الذي وقعت فيه كان خطأً عابرًا، وفعلًا عابرًا سواءً صدقت أم كذبت.

أما يوسف؛ فإما أن يكون من الصادقين تمامًا، أو من الكاذبين تمامًا؛ بمعنى أن هذه الحادثة إما أن تُبرئ يوسف تمامًا وتصبح صفحته بيضاء نقية، أو يصبح من الكاذبين ويُطرد تمامًا؛ لذلك يحب بعض الناس أن يقفوا وقفًا هنا –وإن كان الأولى أن يصلوا الكلام–، فتجدهم يقرؤون: ﴿وإن كان قميصه قُد من دبر فكذبت﴾ ويقفون هنا، ثم يقرؤون: ﴿وهو من الصادقين﴾[يوسف:26]، وكأنه يشير إلى براءة يوسف.

﴿فلما رأى قميصه﴾[يوسف:28]؛ وهنا يقول العلماء أن "رأى" المقصود بها العزيز؛ لأنه كان مهتمًّا جدًّا بالأمر، فكأنه الوحيد الذي رآه بالرغم من أن القميص خرج أمام الناس وأمام الشاهد –إن قلنا أنه القاضي– وأمام المرأة، لكن كأنه هو الوحيد الذي كان منتظرًا للنتيجة؛ هو الوحيد المتشوف للنتيجة.

﴿فلما رأى﴾ أي: العزيز ﴿قميصه قُد من دبرٍ﴾

أنت عندما تتخيل هذا المشهد تظن أنه مثلًا سيُخرج مسدسًا ويطلق النار عليها، تخيل كأنك تقرأ السورة لأول مرة ﴿فلما رأى قميصه قُد من دبر﴾[يوسف:28]؛ فتنتبه هنا وتترقب ماذا سيفعل العزيز؟!

﴿قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾[يوسف:28]،

كان رجلًا منفتحًا جدًّا!

حيث قال العلماء أنه لم يبدأ حتى بمواجهتها بالخطاب! أجّل المواجهة، فقال لها بعد ذلك: ﴿واستغفري﴾[يوسف:29] لكن لم يقل: "إنه من كيدك"، فلم يُرد أن يواجهها بهذا الكيد والمكر، وكأن هذا هو الطبيعي في النساء، وأنتِ واحدة من ضمن النساء.

﴿إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾[يوسف:28]، هل فهمتم الفرق بين "إنه من كيدك" أو "من كيدكن"؟ فعلًا كان رد فعله عجيبًا جدًّا!، ومن يقرأ هذه الآيات وتكملتها، يعرف أنه تحدث أحيانًا في بعض القصور أحداث أنت لا تتخيلها: قضايا معينة في الشهوات، أو الإسراف في الأموال، وللأسف

كان هذا يحدث أحيانًا حتى في قصور بعض الخلفاء المسلمين؛ وهذا الذي كان يؤدي إلى انهيار بعض الدول: الترف، والإسراف، وكثرة الزنا –والعياذ بالله–؛ هذا كان يؤدي إلى سقوط دولة إسلامية معينة، فتقوم دولة أخرى، فتحاول أن تتمسك بالأحكام، ثم تمر بمرحلة الترف والبذخ مثلما حدث في نهاية الأندلس، أسأل الله عز وجل أن يردها لنا مرة أخرى وأن يستعملنا في ردها.

فهُنا من الواضح أن القصر كانت فيه أحداث عجيبة؛ مثل المشهد الذي سيأتي في المرة القادمة –إن شاء الله–، وكيف أنها دعت النسوة وأعدت المتكأ، {وقالت اخرج عليهن}[يوسف:31]، فكيف يحدث هذا؟!، وبعد المشهد الأول!؛ فغياب الغيرة وغياب النخوة أشياء عجيبة تحدث في بعض أماكن الترف.

{فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم}[يوسف:28]؛ لدرجة أنك ممكن تظن أن: {إن كيدكن عظيم} مدح!، وقد كان المفترض من السياق أن يغضب أكثر من ذلك.

وبعدها قال: {يوسف}؛ وهنا قال يوسف بغير النداء؛ ولم يقل: "يا يوسف"، فما الفرق؟

"يوسف" توحي بالقرب، بينما أداة النداء تستعمل غالبًا للبعيد، لكن هنا كأنه اقترب منه، وقال: "يوسف"؛ فقالوا هنا: النداء بالاسم من غير أداة نداء يوحي بالمودة والقرب، أو الاحتواء.

اقترب منه، وقال: {يوسف أعرض عن هذا}[يوسف:29]، ولم يقل له يعرض عن ماذا؛ هل يريد أن يقول: أعرض عن كلامها؟ أم أعرض عن الاتهام؟ أم عن الحدث؟ أو عن الحديث أو القصة؟ أم أعرض عن الكلام؟؛ فكأنه يقول: "أعرض عن هذا كله"؛ كأن شيئًا لم يحدث {يوسف أعرض عن هذا}.

وإذا كنت تعتقد أنني غير غاضب منها: {واستغفري لذنبك إنك كنتِ من الخاطئين}[يوسف:29]؛ وكأنه يقول: لقد عنّفتُها ولن تفعل ذلك مرة أخرى، لكن يا يوسف لا تذكر الأمر لأحد، واستعمال لفظ "استغفري" كأنه لفظ ديني، وكأنه يُراضي سيدنا يوسف مع أنه من المفروض أنه هو المتألم، فقال: {يوسف أعرض عن هذا} وأنت {استغفري لذنبك إنك كنت...} ماذا؟ {من الخاطئين}.

وأيضًا هنا: {إنك كنت من الخاطئين}،و"مِن" عندما تأتي مع جمع؛ كأنه من الطبيعي أن نُخطئ، وأنتِ واحدة من الذين أخطأوا، والحل: أن تستغفري ربك وينتهي الأمر، طبعًا هذا يدل على غياب الغيرة وغياب الشهامة والرجولة.

ويبدو أنها كانت تتوقع أنه لن يفعل شيئًا، فعندما كانت تقول: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا}[يوسف:25]؛ كأن الخطاب كان تهديدًا ليوسف، فكأنها لم تكن تخاطب زوجها، أو تُبرئ نفسها؛ فعندما كانت تقول: {ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجن}، كأنها تقول ليوسف إن جزاء هروبك مني هو: إما أن تُسجن أو تُعذب، وسأكرر ذلك كأنها متوقعة أنها لن تُعاقب.

{يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين۝ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز }[يوسف:30,29]؛ أول مرة اسمها يظهر، فعندما كنت تقرأ لم تكن تعرف من هذه، فمن الذي فضحها؟ فضحها النساء: {وقال نسوةٌ في المدينة} انظر إلى جمال اللغة العربية؛ فالعلماء هنا تساءلوا عن كلمة "في المدينة" هل هي متعلقة بكلمة "نسوة"، أم متعلقة بـ"قال"؟ وما الفرق؟

فهل نسوةٌ في المدينة هن من قلن ذلك؟؛ فكلمة "في المدينة" تعني أنهن من نساء المدينة، ولسن من المسافرات أو من البدويات، لا بل هن من المستقرين في المدينة، هذا لو كلمة "في المدينة" متعلقة بـ "نسوة".

أما إذا كانت كلمة "في المدينة" متعلقة بكلمة "قال"؛ فَمعناها أن نسوةً قلن هذا الأمر في المدينة، فالمقصود به شيوع الخبر وانتشاره.

إذًا؛ "في المدينة": إن كانت متعلقة بـ"نسوة"؛ فالمراد أنهن من النساء العريقات في المدينة اللاتي أقمن في المدينة منذ زمن؛ أي: أنهن من أهل مصر الأصليين، ويعرفن التفاصيل؛ فبالتالي كلما حدث أمر في القصر ذهبن مباشرةً لاستقصاء الأخبار؛ وهذا إن كانت كلمة "في المدينة" متعلقة بنسوة.

أما إن كانت متعلقة بـ"قال"؛ فالمقصد هو شيوع الخبر، وهذا ما اختاره أبو حيان في "البحر المحيط"؛ حيث قال: "المقصد شيوع الخبر وانتشاره"، بالرغم من أن أبا حيان قال أن كلمة "نسوة" جمع قلة؛ فلم تأتِ: "نساء" أو "نسوان" وهما لجمع الكثرة، بل حتى إن بعض المفسرين -أو كثير منهم- نقل آثارًا تدل

على أن اللاتي تكلمن كن خمسًا فحسب؛ فسُئل أبو حيان: كيف اخترت أن كلمة "في المدينة" تفيد الشيوع والانتشار، واخترت أن النسوة كن خمسًا فحسب؟!

فقال: أن خمس نساء وفي هذه المواضيع تحديدًا يكفين جدًّا؛ فعندهن القدرة على نشر الأمر في المدينة، -وهذا كان في أيامهم، فما بالك في أيامنا هذه مع وجود وسائل التواصل الاجتماعي "الفيس بوك" وغيره، فإن ذلك كافيًا لينتشر الأمر في القارة وليس المدينة فحسب-؛ ولذلك قال أبو حيان: "فالنساء هن أكثر الناس بحثًا عن أسرار البيوت، وأقدرهن على فتح مَغالقها وكشفها".

وهذا صحيح فأنت تجد موضوعات معينة تهتم بها النساء جدًّا؛ وموضوعات معينة يهتم بها الرجال جدًا، فهناك موضوعات معينة وأخبار معينة تنتقل في أوساط الرجال، وهناك أخبار أخرى تنتقل في أوساط النساء.

ففي أوساط الرجال تجد موضوعات مثل: سيارة جديدة، أو وظيفة جديدة، فلان سبقني، فلان يتقاضى راتبًا أعلى؛ فهذا ما يشغلهم.

أما النساء فيهتممن بتفاصيل داخلية معينة: ماذا أعطى لزوجته؟ ولا يهم كم يتقاضى، فالمهم ماذا أهداها، ويركزن في التفاصيل؛ وهذا معروف أن الرجل يهتم بالكليات، أما المرأة غالبًا تهتم بالتفاصيل، ولا سيما التفاصيل التي في داخل البيوت، وخاصة أن بينهن غيرة.

لذلك ذكر بعض المفسرين آثارًا تقول: أن النسوة لسن من النساء اللاتي يسكنّ في المدينة، بل امرأة الخباز وامرأة الساقي وامرأة فلان الذي يعمل في القصر، وهن أيضًا يعملن في القصر؛ فهن نسوة يعشن في القصر لا في المدينة، ولكنهن نَشرن الخبر في المدينة مكيدةً لامرأة العزيز، وكان بينهن نوع من الغيرة، وخاصة أنها كانت تُعاملهن معاملة سيئة؛ فهي كانت السيدة لهن.

{وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز}[يوسف:30]؛ وعندما ذكرن الأمر تكلمن بصراحة، فلو ذكرن اسمها، فقد توجد امرأة تحمل نفس الاسم في المدينة، لكنهن قصدن فلانة لاحظ الدقة في نقل الأخبار {قال نسوة في المدينة امرأة العزيز}، واتّهمنها مباشرةً {تراود}، ولم يقلن "يوسف" بل {فتاها}؛ لأنهن يقصدن الفضيحة والإهانة {تراود فتاها عن نفسه}[يوسف:30].

ثم أتين بتحليل الخبر {قد شغفها حبًّا}، ثم بالنتيجة {إنا لنراها في ضلال مبين}[يوسف:30]؛ فالخبر لم ينتشر وحده، فهن لم ينقلن الحدث فحسب، بل أتين بالخبر والتحليل والنتيجة؛ بحيث لا تتعب في شيء!

وهذه خطورة نقل الأخبار والزيادة فيها؛ وهذا معروف، فمثلًا لو جلس أشخاص في مجموعة على شكل دائرة، وذكر أحدهم خبرًا ما للذي يليه في الدائرة، وهو بدوره ينقله إلى الذي يليه، وهكذا حتى يرجع الخبر مرة أخرى إلى الذي قاله أول مرة، يفاجأ أن الخبر أصبح أخبارًا، وزاد كل واحد منهم فيه شيئًا.

{وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز}[يوسف:30] حددن مَن هي بالضبط؛ وهذه أول مرة في السورة تعرف فيها أن المرأة كانت امرأة العزيز، و{تراود} بصيغة المضارع وليس "راودت"؛ كأنها ما زالت مستمرة في المراودة، {فتاها} أي: عبدها، وهنا نوع من الإهانة والاحتقار؛ لذلك هي أرادت أن ترد على هذه النقطة، فكما أنكن تتهمنني أني أراود فتاي، سأجعلكن تطلبن نفس ما أطلبه؛ وهذا شيء عجيب جدًّا؛ فبدلًا من أن تدافع عن نفسها، أرادت أن يقعن جميعهن في نفس السوء، فلا يُعيّر أحدٌ أحدًا.

وهذا يحدث كثيرًا: هل تدّعي أنك شريف؟؛ سنوقعك ونصبح كلنا متساويين؛ وهذا مشهور جدًا: {ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً}[النساء:89]؛ فالإنسان العفيف أو الشريف ينغص على الباقين {أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون}[النمل:56] لأن وجودهم علامة على فسادنا.

{تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا}[يوسف:30]، الشغف: هو الوصول إلى أعماق القلب، والوصول إلى حالة من الجنون بالحب، {قد شغفها حبًّا}؛ {إنا} بصيغة التأكيد، والأمر واضح عليها {إنا لنراها} ولم يقلن: "لنظنها"، {إنا لنراها}؛ أي: نرى الأمر عِيانًا، وأنها وصلت إلى مرحلة من الضلال الواضح المبين.

إذًا؛ المقصد هنا هو الإهانة والتحقير، بل حتى قال بعض العلماء أنهن قلن ذلك كيدًا -وأظن أن هذا هو اختيار الطبري-؛ فقالوا: هذا كيد حتى يرين يوسف، وأنها كانت تخبئ يوسف عنهن، فقلن ذلك لاستفزازها حتى تُريهنّ يوسف.

- فكلام النساء أحيانًا يكون له أبعاد أنت لا تتخيلها، ولا تخطر ببالك؛ وهذه حقيقة؛ حيث أن لديهن من الذكاء والحكمة والفطنة ما يجعلهن يقلن هذا الكلام، وأنت تحتاج أن تكون سابقًا بسنين حتى تفهم هذه الجملة والمقصد منها، ولا سيما مع بعضهن البعض؛ فيمكن أن يدور حوار بين اثنتين لو سمعتَه أنت لاعتقدت أن الحوار عادي جدًّا؛ تسألها عن أحوالها، والحقيقة أن ذلك الحوار مليء بالكيد والمكر والأفخاخ، وأنت غير منتبه لذلك، وتتعامل بقمة السذاجة والسطحية؛ وهذا لضعف ذكائك وقلة خبرتك في الحياة، لكن المرأة فعلًا سابقة بسنين، ولا سيما مع بعضهن البعض، وتظهر المكيدة والمكر غالبًا بينهن عند التنافس والغيرة.

فهنا قلن: {إنا لنراها}، وذكرت أن بعض المفسرين -أظنه الإمام الطبري، وسأراجع ذَلك- قال أن المقصد هو: أن هذا كيد ومكر منهن ليرين يوسف، فأنت تستغرب؛ لأنك عندما قرأت كلامهن اعتقدت أنهن يستنكرن فعلها، وأنهن شريفات ويتعجبن من فعلها لذلك، ثم تُفاجَأ في الصفحة التي تليها بأنهن ذهبن إليها وليست لديهن مشكلة!؛ فتتعجب من ذلك؛ ألم تكنّ بالأمس تَستنكرن الأمر! الآن تفعلن نفس هذا الأمر! فنسأل الله السلامة والعافية.

فالإمام الطبري قال: أن المقصد من كلامهن المكر، وليس الشرف، {فلما سمعت بمكرهن}[يوسف:31]؛ قال: نفهم من كلمة "مكرهن" أن كلامهن كان مجرد كيد ومكر ليرين يوسف، {فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن}؛ مشهد مختلف تمامًا!.

إذًا -ونلاحظ هنا انتقال المشاهد-؛ كان لدينا مشهد المراودة، ثم مشهد الشهادة والحكم، ثم مشهد الخبر ينتقل في المدينة وفي أوساط معينة، ومشهد النساء اللاتي يتكلمن مع بعضهن البعض، ثم مشهد

الرجوع مرة أخرى إلى القصر{فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدةٍ منهن سكينًا}[يوسف:31]؛ لماذا فعلت ذلك؟

هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة بإذن الله سبحانه وتعالى، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.